سـورة الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الصف مدنية في قـول الجميع، فيما ذكر الماوردي. وقيل: إنهـا مكية، ذكره النحاس عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾

تقدم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تـعالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لِـمَ تَقُولُونَ مَـا لا تَفْـعَلُونَ﴾ روى الدارمي أبو مـحمـد في مسنده: أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفـر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فـقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴿٢﴾ ﴾ حتى ختـمها. قال عبد الله: فـقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمـها. قال أبو سلمة: فـقرأها علينا ابن سلام. قـال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمـة، وقرأها علينا يحيى ،وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد [١]. وقال ابن عباس: قال عبدالله بن رواحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه ؛ فلـما نزل الجهاد كرهوه [٢]. وقال الكلبي: قال المؤمنون: يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعـمال إلى الله لسارعنا إليـها؛ فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] فـمكثـوا زمانا يقـولون: لو نعلـم ما هي لاشـتـريناها بالأمـوال والأنفس والأهلين؛ فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] الآية، فابتلوا يوم أحد ففروا؛ فنزلت تعيرهم بترك الوفاء [٣]. وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بثواب شهداء بدر قالت الصحابة: اللهم اشهـد ، لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا؛ ففروا يوم أحد فعيرهم الله بذلك [٤]، وقال قتادة والضحـاك: نزلت في قوم كانوا يقولون:

---

(١) صحيح: الترمذي (٣٣٠٩) ، والدارمي (٢٣٩٠) في سننه وصححه الألباني.

(٢) منقطع: الطبري ٢٧٠/ ٨٧) في التـفسير ، طريق عـلي بن أبي طلحة ، ولكن دون ذكر عبـد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ وإنما ذكره مجاهد ـ رحمه الله ـ كما سيأتي.

(٣) مرسل: والكلبي ضعيف إذا أسند ، فكيف إذا أرسل؟ ، وحديثه معضل وانظر القادم .

(٤) مرسل: البغوي (٨/ ١٠٤) في تفسيره .

نحـن جاهدنـا وأبلينـا ولم يفعلوا [١]، وقال صهيـب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته، فقـال رجل: يا نبي اللـه، إني قتلـت فلانا، ففرح النبي ﷺ بذلك، فقال عمر بن الخطاب وعبـد الرحمن بن عوف: يا صهـيب، أما أخبرت رسول الله ﷺ أنك قتلت فلانا! فإن فلانا انتحل قـتله؛ فأخبـره فقـال: «أكـذلك يا أبا يحـيى»؟ قـال: نعم، والله يا رسـول الله؛ فنزلت الآية في المنتحل[٢]، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين؛ كانوا يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا [٣].

الثانية: هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفي بها، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليـه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن؛ فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فـتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشـبهها في الطول والشدة بـ « براءة » فأنسيتهـا؛ غير أني قد حفظت منها: « لو كـان لابن آدم واديان من مال لابتـغى واديا ثالثا، ولا يملأ جـوف ابن آدم إلا التراب »، وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحـات فأنسيتها؛ غير أني حفظت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ فتكتب شهـادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة [٤]، قال ابن العربي [٥]: وهذا كله ثابت في الدين، أما قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ فثابت في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة، وأما قوله: «شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»، فمعنى ثابت في الدين؛ فإن من التزم شيئا لزمه شرعـا، والملتزم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مـبتدأ كـقوله: لله عليّ صلاة وصـوم وصدقة، ونحـوه من القرب، فهـذا يلزم الوفاء به إجماعـا، ونذر مباح وهو ما علق بشـرط رغبة، كقـوله: إن قدم غائبي فعلي صدقـة، أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كـفاني الله شر كذا فعلي صدقة، فـاختلف العلماء فيه، فقـال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به، وقال الشـافعي في أحد أقواله: إنه لا يلزمه الوفاء به، وعمـوم الآية حجة لنا؛ لأنها بمطلقها تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط، وقد قال أصحابه: إن النذر إنما يكون بما القصد منه القربة مما هو مـن جنس القربة، وهذا وإن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقـدام على فعل، قلنا: القرب الشرعية مشقات وكلف وإن كانت قربات، وهذا تكلف التزام هذه القربة بمشقة لجلب نفع أو دفع ضر، فلم يخرج عن سنن التكليف ولا زال عن قصد التقرب، قال ابن العربي [٦]: فإن كان المقول منه وعدا، فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقـوله: إن تزوجت أعنتك بدينار، أو ابتعت حاجة كذا أعطيـتك كذا، فهذا لازم

---

(١) مرسل: وهو صـحيح إلى قتـادة، وفيه انقطاع إلى الضـحاك: البغـوي (٨/ ١٠٤)، والطبري (٢٨/ ٨٨) في تفسيره.

(٢) ضعيف: انظر: تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٥٢٢) للحافظ وعزاه للثعلبي.

(٣) مرسل: الطبري (٢٨/ ٨٩)، والبغوي (٨/ ١٠٤).

(٤) صحيح: مسلم (١٠٥٠/ ١١٩) في الزكاة.

(٥، ٦) أحكام القرآن (٤/ ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠) للقاضي ابن العربي المالكي.

إجماعا من الفقهاء، وإن كان وعدا مجردا فقيل : يلزم بتعلقه، وتعلقوا بسبب الآية، فإنه روي أنهم كانوا يقولون: لو نعلم أي الأعمال أفضل أو أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهو حديث لا بأس به، وقد روي عن مجاهد : أن عبد الله بن رواحة لما سمعها قال: لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أقتل [١]، والصحيح عندي: أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر.

قلت: قال مالك: فأما العدة مثل أن يسأل الرجلُ الرجلَ أن يهب له الهبة فيقول له: نعم؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه، وقال ابن القاسم: إذا وعد الغرماء، فقال: أشهدكم أني قد وهبت له من أن يؤدي إليكم؛ فإن هذا يلزمه، وأما أن يقول: نعم، أنا أفعل؛ ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي لا يقضي عليه بذلك؛ فأما في مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم، وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وقد تقدم بيانه.

الثالثة : قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثمامة ؛ أن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت[٢] قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون [٣]، وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا؛ فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: أترونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله!.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبا، وأما في المستقبل فيكون خلفا، وكلاهما مذموم، وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون، فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة : قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قد يحتج به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي، و﴿أَن﴾ رفع بالابتداء وما قبلها الخبر؛ وكأنه قال: قولكم ما لا تفعلون مذموم، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف . الكسائي: ﴿أن﴾ في موضع رفع؛ لأن ﴿كَبُرَ﴾ فعل بمنزلة بئس رجلا أخوك، و﴿مَقْتًا﴾ نصب بالتمييز ؛ المعنى: كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا، وقيل: هو حال، والمقت والمقاتة مصدران؛ يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبه الناس.

---

(١) عزاه السيوطي (٦/ ٣١٦) لابن المنذر وعبد بن حميد ، وابن عساكر .

(٢) وفت : تمت وطالت. النهاية (٥/ ٢١١).

(٣) حسن : وقد سبق .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي: يصفون صفا، والمفعول مضمر؛ أي: يصفون أنفسهم صفا، ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قال الفراء: مرصوص بالرصاص، وقال المبرد: هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض، والتراص التلاصق؛ ومنه وتراصوا في الصف، ومعنى الآية: يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم [١].

الثانية : وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . المهدوي: وذلك غير مستقيم؛ لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة، ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات.

الثالثة : لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو في رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها، وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين : أحدهما: أنه لا بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلبا للشهادة وتحريضا على القتال، وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالبا لذلك؛ لأن فيه رياء وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو، وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر؛ كما كانت في حروب النبي ﷺ يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف، وقد مضى القول مستوفى في هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله؛ وحل العقاب بمن خالفهما؛ أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصة.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ وذلك حين رموه بالأدرة [٢]؛ حسب ما تقدم في آخر سورة الأحزاب[٣] ، ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون: إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور[٤]، ومن الأذى قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]، وقولهم: إنك قتلت هارون، وقد تقدم هذا، ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول

---

(١) ذكره ابن كثير (٨/ ٨٦) في تفسيره ولم يعزه إلى أحد.

(٢) الأدرة : انتفاخ الخصية لتسرب مائع بين طبقتي الغلاف الذي يحيط بهما . المعجم الوجيز ص ٩

(٣) عند الآية (٦٩) من سورة الأحزاب .

(٤) صحيح إلى ابن عباس : وقد سبق .

يحترم ويعظم، ودخلت ﴿قد﴾ على ﴿تَعْلَمُونَ﴾ للتأكيد؛ كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها عن الهدى، وقيل: ﴿لَمَّا زَاغُوا﴾ عن الطاعة ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية، وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الإيمان ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الثواب، وقيل: أي: لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر لهم هذه القصة أيضا، وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل: « يا قوم » كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: بالإنجيل، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ لأن في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ مصدقا، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ نصب على الحال؛ والعامل فيها معنى الإرسال، و﴿إِلَيْكُمْ﴾ صلة الرسول، ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «من بعدِيَ» بفتح الياء [1]، وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش وأبي بكر عن عاصم، واختاره أبو حاتم لأنه اسم؛ مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت، الباقون بالإسكان، وقرئ: « من بعد اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ، و﴿أَحْمَدُ﴾ اسم نبينا ﷺ، وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى ﴿أَحْمَدُ﴾ أي: أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا، وأما محمد فمنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة، كما أن المُكَرَّم من أكرم مرة بعد مرة، وكذلك الممدّح ونحو ذلك، فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقا عليه؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمدا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه؛ فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: « اللهم اجعلني من أمة أحمد»[2]، فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل، وكذلك في الشفاعة ،يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته، وروي أن النبي ﷺ قال: «اسمي في التوراة: أحيد؛ لأني أحيد أمتي عن النار، واسمي في الزبور: الماحي، محا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في

(١) قراءة متواترة : انظر : تقريب النشر (ص١٨١) .

(٢) ضعيف: وقد سبق .

الإنجيل: أحمـد ، واسمي في القرآن: محـمد ؛ لأني محمود فـي أهل السماء والأرض»[١]، وفي الصحيح :«لي خمسة أسماء : أنا محـمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو اللـه بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر النـاس علـى قدمي، وأنا العاقب»[٢]، وقد تقدم، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل : عيسى، وقيل: محمد ﷺ، ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة: «ساحر»[٣] نعتا للرجل، وروي أنها قراءة ابن مسعود، الباقون: ﴿سِحْرٌ﴾ نعتا لما جاء به الرسول.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تقدم في غير موضع، ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ هذا تعجب ممن كفر بعـيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهـرت لهما، وقرأ طلحـة بن مصـرف: «وهو يُدَّعى» بفـتح الياء والدال وشـدها وكسـر العين، أي: ينتـسب، ويَدَّعي وينتسب سواء، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝﴾

قوله تـعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الإطفاء هو الإخـماد، يسـتعمـلان في النار، ويستعـملان فيما يجـري مجراها من الضياء والـظهور، ويفترق الإطفاء والإخـماد من وجه؛ وهو أن الإطفاء يسـتعمل في القليل والكثير، والإخـماد إنما يستعـمل في الكثير دون القليل؛ فيـقال: أطفأت السراج؛ ولا يقال: أخمدت السراج، وفي ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ هنا خمسة أقاويل، أحدها: أنه القرآن؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول؛ قـاله ابن عباس وابن زيد[٤]، والثاني: إنه الإسلام؛ يريـدون دفعه بالكلام؛ قاله السدي[٥]، الثالث: أنه مـحمد ﷺ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف؛ قـاله الضحاك[٦]. الرابع: حجج الله ودلائله؛ يريدون إبطالهـا بإنكارهم وتكذيبـهم؛ قاله ابن بحـر[٧]. الخامس: أنـه مثل مضروب؛ أي: من أراد إطفاء نور الشـمس بفيه فوجده مستحـيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق؛ حكاه ابن عيسى[٨]، وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوما؛ فقـال كعب بن الأشرف: يا معشر اليـهود، أبشروا ، فقد أطفأ الله نـور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كـان ليتم أمره؛ فحزن رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل

---

(١) موضوع : ذكـره الماوردي (٥/ ٥٢٩) بلا سند في النكت والعيون ، وذكره الذهبي (١/ ٣٣٦) في الميـزان وفيه: إسحاق بن بشر وهو الكاهلي: كذاب كما قال الدارقطني ويروى العظائم ، عن ابن إسحاق ، وابن جريج .

(٢) متفق عليه : وقد تقدم

(٣) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٠٨) .

(٤) صحيح إليه : الطبري (٢٨/ ٩٢) ، والماوردي (٥/ ٥٣٠) في تفسيره .

(٥ ـ ٨) الماوردى (٥/ ٥٣٠) .

الوحي بعدها [١]؛ حكى جميعه الماوردي رحمه الله، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي: بإظهاره في الآفاق، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وشبهه، حسب ما تقدم بيانه في آل عمران، الباقون: «مُتِمٌّ نُورَهُ» [٢]؛ لأنه فيما يستقبل؛ فعمل، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ من سائر الأصناف.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: محمدا بالحق والرشاد، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: بالحجج، ومن الظهور: الغلبة باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين، ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان، قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام [٣]، وقال أبو هريرة: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بخروج عيسى، وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكما عادلا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص [٤]، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» [٥]، وقيل: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: ليطلع محمدا ﷺ على سائر الأديان؛ حتى يكون عالما بها عارفا بوجوه بطلانها، وبما حرفوا وغيروا منها، ﴿عَلَى الدِّينِ﴾ أي: الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبر به عن جمع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾، قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصيت وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار أبدا. فقال رسول الله ﷺ: «إن من سنتي النكاح، ولا

(١) انظر السابق، وهو غريب بعض الشيء في متنه في تفسيره.
(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٨١).
(٣) ضعيف إلى أبي هريرة: الطبري (٢٨/ ٩٢) في تفسيره، وانظره مرفوعًا في التالي.
(٤) القلاص: جمع (قلوص) وهي الناقة الفتية بمنزلة الجارية ـ الفتاة من النساء، والحدث من الرجال اللسان» قلص».
(٥) صحيح: مسلم (١٥٥/ ٢٤٣) في الإيمان.

رهبانيـة في الإسلام ، إنما رهبانية أمـتي: الجهاد في سبيـل الله، وخصاء أمتي الصـوم، ولا تحرموا طيبـات مـا أحل الله لكـم، ومن سنتي أنام وأقـوم وأفطر وأصـوم، فـمن رغب عن سـنتي فليس منى»[1]، فقال عثـمان: والله لوددت يا نبي الله أي: التجارات أحب إلى الله فأتجـر فيها؛ فنزلت، وقيل: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ أي: سأدلكم [2]، والتجارة الجهاد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١] الآية، وهذا خطاب لجميع المؤمنين، وقيل: لأهل الكتاب.

الثانية: قوله تـعالى: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تخلصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم، وقراءة الـعامة ﴿تُنجِيكُم﴾ بإسكان النون من الإنجـاء، وقرأ الحسن وابن عـامر وأبو حيـوة: «تُنَجِّيكُم» مـشددا من التنجية، ثم بين التجارة وهى المسألة.

الثالثة: فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ذكر الأموال أولا؛ لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ عند المبرد والزجاج في معنى آمنوا، ولذلك جاء ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مجزوما على أنه جواب الأمر، وفي قراءة عبد الله: « آمنوا بالله»، وقال الفراء: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب الاستفهام؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى؛ وذلك أن يكون: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ عطف بيان على قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كأن التـجارة لم يدر ما هي؛ فـبينت بالإيمان والجهاد؛ فهي هما في المعنى، فكأنه قال: هل تؤمنون بالله وتجـاهدون يغفر لكم، الزمخشري: وجه قول الفراء أن مـتعلق الدلالة هو التجارة والتـجارة مفسـرة بالإيمان والجهاد، كأنه قيـل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم، قال المهدوي: فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة؛ لأن التقدير يصير إن دللتم يغفر لكم؛ والغفران إنما نعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة، قال الزجاج: ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم؛ إنما يغـفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا، وقرأ زيد بن علي: « تؤمنوا »، و « تجاهدوا» و﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾ على إضمار لام الأمر؛ كقوله:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيءٍ تَبَالا

أراد لتفد، وأدغم بعـضهم فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ والأحسن ترك الإدغام؛ لأن الـراء حرف متكرر قوي، فلا يحسن إدغامه في اللام؛ لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرج أبو الحسين الآجري عن الحسن قال: سألت عمران ابن الحصين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فـقال: «قصر من لؤلؤة في الجنة فيه سبعـون دارا من ياقوتة حمراء، في كل دار سبـعون بيتا من زبرجدة خـضراء ،في كل بيت سبـعون سريرا، على كل سرير سـبعون فراشا من كل لون، على كل فـراش سبعون امرأة من الحور العين في كل بيت سـبعون مائدة ، على كل مائدة سبعـون لونا من الطعام ،في كل بيت سبعون وصـيفا ووصيفة ،فيـعطي الله تبارك وتعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله» [3]، ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ

(١، ٢) معضلان :وهو في الصحيح بغير هذا الإسناد ، وبغير متنه أيضاً .

(٣) موضوع :وذكره ابن المبارك (١/ ٥٥) في الزهد ، والطبري (١٠/ ١٧٩) في تفسيره ، وفيه :(جسر بن فرقد =

﴿الْعَظِيمُ﴾ أي السعادة الدائمة الكبيرة، وأصل الفوز الظفر بالمطلوب،

الخاصة : قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ قال الفراء والأخفش: ﴿أُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿تِجَارَةٍ﴾ فهي في محل خفض، وقيل: محلها رفع أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هو نصر من الله؛ فـ ﴿نَصْرٌ﴾ على هذا تفسير ﴿وَأُخْرَىٰ﴾، وقيل: رفع على البدل من ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: ولكم نصر من الله، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: غنيمة في عاجل الدنيا؛ وقيل: فتح مكة، وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم [١]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

آكد أمر الجهاد؛ أي: كونوا حواريي نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواريي عيسى على من خالفهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿أنصارا لله﴾ بالتنوين [٢]، قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعوانا لله بالسيف على أعدائه وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام: ﴿أَنصَارَ اللَّهِ﴾ بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى، واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ ولم ينون؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله، ثم قيل: في الكلام إضمار؛ أي: قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله، وقيل: هو ابتداء خطاب من الله؛ أي: كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريين، والحواريون خواص الرسل، قال معمر: كان ذلك بحمد الله؛ أي: نصروه وهم سبعون رجلا، وهم الذين بايعوه ليلة العقبة [٣]، وقيل: هم من قريش، وسماهم قتادة: أبا بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة - واسمه عامر - وعثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب؛ ولم يذكر سعيدا فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا، وقد مضت أسماؤهم في « آل عمران » [٤]، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، قاله ابن عباس، وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون [٥] فاسألهم النصرة، فأتاهم عيسى

= وهو ضعيف جدًا ، كما أن إسحاق بن سليمان لم يسمع منه الطبري ، وهناك خلاف في سماع الحسن من أبي هريرة ، فكيف يُصرَّح بالسماع وهناك انقطاع بين التابعي ومن روى عنه : يعني بين إسحاق والحسن ، ثم لفظه «السبعين» هذه التي ليس فوقها ولا تحتها من عدد هي لفظة القصاص دائمًا كأن ربك لم يخلق فوق السبعين ولا تحتها كما قال ابن قتيبة ـ رحمه الله .

(١) ذكره **البغوي عن عطاء كما في تفسيره** (٨/ ١١٠) .

(٢) **قراءة متواترة** : تقريب النشر (ص١٨١) .

(٣) مرسل : ذكره الطبري (٢٨/ ١٩٥) عن معمر ، عن قتادة به ، وذكره عبد الرزاق (٣١١٤) في تفسيره .

(٤) عند الآية (٥٢) من آل عمران ولم يذكر ـ رحمه الله الأسماء هناك .

(٥) **القصارون**: الصباغون ، وقيل الغسالون اللسان « قصر».

وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك، فصدقوه ونصروه، ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من أنصاري مع الله، كما تقول: الذود إلى الذود إبل، أي: مع الذود، وقيل: أي: من أنصاري فيما يقرب إلى الله، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وقد مضى هذا في آل عمران ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدم في آل عمران بيانه، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: غالبين. قال ابن عباس: أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار [1]، وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى، وقيل: أيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين، من قال: كان الله فارتفع، ومن قال: كان ابن الله فرفعه الله إليه؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال، وقال زيد بن علي وقتادة ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل؟[2]، وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام: قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريين والأتباع: فطرس وبولس إلى رومية، وأندرابيس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق، وفيلبس إلى قرطاجنة وهي إفريقية، ويحنس إلى دقسوس قرية أهل الكهف، ويعقوبس إلى أورشليم وهي بيت المقدس، وابن تلما إلى العرابية وهي أرض الحجاز، وسيمن إلى أرض البربر، ويهودا وبردس إلى الإسكندرية وما حولها، فأيدهم الله بالحجة، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: عالين؛ من قولك: ظهرت على الحائط، أي: علوت عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

---

(١) البغوي (٨/ ١١٠) في تفسيره.

(٢) لم أجده فيما بين يدى، والأسماء التي ذكرها ابن إسحاق أسماء إسرائيلية منقولة عن أهل الكتاب، والله أعلم.